الانفعالات الإنسانية في الفلسفة الأبيقورية

د. عطية إبراهيم إشتيوي بلقاسم
قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ جامعة سرت.
a.aibrahm@su.edu.ly

الملخص

تتناول هذه الدراسة الانفعالات في الفلسفة الأبيقورية، وما تحدثه من قلق واضطراب نفسي يؤثر على حياة الإنسان السلوكية.

فقد حددت الأبيقورية تلك الانفعالات من خلال مفهومها للذة والألم، باعتبار اللذة هي الغاية المنشودة للوجود الإنساني، والألم هو أكثر الشرور التي على الإنسان تجنبه حتى تتحقق السكينة الداخلية، والهدوء النفسي (السعادة).

ومن أجل توضيح دور الانفعالات في الحياة الإنسانية وأثرها على تحديد نوع اللذة التي يجب على الإنسان تحقيقها والألم الذي يجب أن يتجنبه؛ تناولت هذه الدراسة مقدمة تُعرِّف بأهمية الموضوع وإشكاليته والمنهج الذي أُعْتُمِد عليه في هذه الدراسة؛ ومبحثين, يتناول المبحث الأول: التحرر من الانفعالات من خلال تحليل علاقتها بالإحساس والرغبات, واللذة والألم وموقف الحكيم منها. والمبحث الثاني: يتناول القضاء على المخاوف المتمثلة في الخوف من الموت والبعث والحساب, والخوف من الإله؛ وخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث في هذه الدراسة.

المقدمة:

لقد كانت غاية الفلسفة عند الأبيقورية(*) هي الوصول إلى الحياة السعيدة والمطمئنة، فكان من لابد للإنسان من أن يتعلمها ويمارسها؛ للوصول إلى الأتراكسيا(**), التي لا تتحقق إلا بالتحرر من الانفعالات, والقضاء على المخاوف التي تعوق شعور الإنسان بالأمان والراحة, وتجعله يشعر بالقلق.

وقد جاءت الأبيقورية كردة فعل على واقع اجتماعي وحضاري إثر الأزمات التي عصفت ببلاد اليونان، وأفضت إلى سيطرة المقدونيين على مقاليد الحكم, والتي فقدت إثرها المدن اليونانية استقلالها وسيادتها, وعمت الفوضى والقلق, فغدا الإنسان يخشى شرَ الإنسان، وشعر الإغريق بأن الحضارة التي آلت بهم إلى ذلك المصير لا بد من إعادة النظر في

* الأبيقورية نسبة إلى مؤسسها أبيقور الذي ولد سنة 341 ق م- بديم قرجتوس بأثينا حسب رواية ديوجان اللاترسي, أو بجزيرة ساموس التي لا تبعد كثيراً عن السواحل الأيونية في عرض بحر تركيا الحالية حسب روايات أخرى. مهما كان الأمر فهو قد تربى في ساموس؛ حيث كان أبوه نيوقلاس يدرس قواعد النحو, وأمه خرستراث تمارس السحر والشعوذة, فكان يصاحب هذه الأخيرة أثناء الزيارات التي تقوم بها إلى البؤساء من الناس لتساعدهم على استرضاء الآلهة واسترجاع الحظ, وربما كان لما شاهده أبيقور من نذور وتطيرات واعتقادات سخيفة- الوقع الكبير في نفسه آنذاك, مما يفسر العداء الشديد الذي ما فتئ يكنه للأساطير والخرافات والأباطيل, أنظر (أبيقور,1991م)

وعام 311 ق م أسس أبيقور مدرسة بميتيلان بجزيرة لسبوس حيث لم يمكث أكثر من سنة, مما يدل على أن استقبال الأهالي له كان بارداً وسلوكهم نحوه عدوانيا، نظراً للأفكار المادية والمتعبة التي كان يلقنها والتي لم يتعود معاصروه على مثلها. بيد أنه ترك خليفة له على رأس المدرسة وهو هرماك, وذهب إلى لمبزاك, إحدى مدن الهللسبونت الدردنال الحالية حيث أقام مدرسة سنة 310 ق م تقريباً. وحيث كان له أصدقاء أوفياء إلى أخر حياته: بوليان وهو عالم رياضيات كبير تخلى عن علمه للتفلسف معه, وكولوتاس وإيدوميني و ليوني وزوجة هذا الأخير تيمستا وهيرودوت وفيثوقليس وخاصة أقربهم إلى قلبه, مترودور الذي لُقب بأبيقور الثاني. وخلال سنة 306 ق م رجع أبيقور مصحوباً بعدد من تلامذته من لميزاك إلى أثينا التي لا تزال عاصمة الفكر رغم تدهور الحياة السياسية فيها. واقتنى فيلسوفنا حديقة أسس فيها مدرسته فلُقب وأتباعه بفلاسفة الحديقة, وقصد الحديقة وفود من المعجبين من بينهم نسوة حرائر ومومسات ورقيق كونوا جماعة من الأصدقاء المسالمين آثرو الهدوء والسكون على المجادلات العلمية, وفضلوا العيش في العزلة والخفاء— وفقاً لأحدى قواعد الأبيقورية— على التحذلق أمام جمهور غفير من المولعين بالجدل والمناقشة, مثلما كان يحدث في المدرسة الرواقية التي أقامها في نفس الفترة زينون الستيومي. وتوفي أبيقور الذي عد في مرتبة الآلهة الناعمة سنة 270 ق. م إثر مرض عضال لم يغير من صفائه ومن هدوئه شيئاً, رغم ما كان يشعر به من آلام شديدة. انظر: (أبيقور, 1991م),

** الأتراكسيا (Lataraxie) لفظ يوناني يعني(عدم الاضطراب) ويشير هذا اللفظ إلى حالة من السكون الروحي وعدم القابلية للتأثر, وهي حالة لا يفوز بها سوى الحكيم الذي سمحت له معرفته بجميع الأمور بالتغلب على الخوف والتحرر من الانزعاج والاكتفاء بالقليل. أنظر: (معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية, 2004م)

قيمها، بما يضمن إعادة الثقة والطمأنينة والسعادة إلى الإنسان. (سعد: 2015م)؛ وذلك لا يكون عند الأبيقورية إلا بتغيير المفاهيم والتصورات الموروثةً, حول خلق العالم, وماهية النفس, ودور الإله وطبيعته, ومعنى الوجود الإنساني وغايته, وما هو الموت, وما بعد الموت.

فقد رأى أبيقور أن الناس يجهلون طبيعة أنفسهم, ورغباتهم, ومشاعرهم, والغاية من وجودهم؛ وأيضاً يخافون من الموت, وما يعقب الموت من جزاء, و يخافون الإله؛ وهذا سببه الأوهام والخرافات, والأساطير, والتعاليم الدينية, التي تمتلئ بها عقولهم وحياتهم و؛ فكان لزاماً عليه تحرير النفس الإنسانية من الرغبة في الشهوات والمتع الجسدية, و كسب الثروة وتحقيق المجد والشهرة, والسلطة, وما إلى ذلك من رغبات؛ والقضاء على حالة الرهبة من الموت, والعالم الآخر, والآلهة.

ومن أجل ذلك جعل أبيقور من مهمة الفلسفة السيطرة على تلك الانفعالات والمخاوف سيطرة كاملة من خلال البحث عن الأسباب, و القوانين, والعوامل, التي تحكم العالم الطبيعي والظواهر, وأيضاً البحث في الإنسان, والقيم. بعيداً عن كل تصور ميتافيزيقي أو خرافي أوديني, يبعث في النفس الإنسانية الخوف من المصير والقلق من الحياة. الأمر الذي جعل من الفلسفة الأبيقورية فلسفة علمية عملية، ترفض عالم ما وراء الطبيعة وتنادي بمادية الوجود وتشكله وتنوعه وفقاً لمبدأ الذرات, وتُرجع كل العوالم والحوادث لظروف وعوامل سببية وطرق ميكانيكية.

فالأبيقورية قد مزجت بين عدة فلسفات كانت سائدة في ذلك الوقت, حيثُ قامت في مجال المعرفة على نزعة تجريبية تجعل من الإحساس المعيار الأول للحقيقة لا يعرف الخطأ, وفي مجال علم الطبيعة على نزعة ذرية مادية- موروثة عن لوسيبوس وديموقريطس, وفي مجال الأخلاق على نزعة متعية تختلف عن متعية أرستيب القورينائي تعتمد اللذة معياراً للسعادة.

مشكلة الدراسة:

لقد كانت الانفعالات عند الأبيقورية هي التي تحدد السلوك الأخلاقي للإنسان، أي ما ينبغي على الإنسان القيام به وما ينبغي تجنبه, وما يجب أن يتحصل عليه من لذات، وما يجب تجنبه من آلام من أجل الوصول إلى السعادة التي ارتبط مفهومها بالغاية من وجوده؛ والانفعالات بذلك كانت هي من تحدد أزمة الصراع الداخلي للإنسان بين رغباته ومعتقداته

الفكرية والدينية. والسؤال هنا كيف عالجت الأبيقورية هذا؟. وكيف استطاعت الأبيقورية أن تضع تصوراً أو مفهوماً واضحاً عن سبل وطرق التحرر والقضاء على الانفعالات والمخاوف؟.

أهمية الدراسة:

لقد شكل موضوع الانفعالات في الفكر اليوناني أهمية كبيرة لدى الباحثين في أغوار النفس الإنسانية, ولهذا تأتي هذه الدراسة كمحاولة للكشف عن ما يعيق تحقيق السعادة للإنسان التي تمثل الغاية من وجوده, والتي بها يكون وجوده مكتملاً. كما أن هذه الأهمية تأتي من نجاح الفلسفة الأبيقورية في مجال التحليل النفسي لمصدر الانفعالات، وتحديد ماهيتها وطرق الخلاص والتحرر منها؛ مما أثرى ذلك الفكر الإنساني, الأمر الذي جعل من الفلسفة الأبيقورية مصدراً معرفياً مهماً يُستفاد منه في كل زمان ومكان.

الهدف من الدراسة:

يتجلى الهدف من هذه الدراسة في تقديم قرأة تحليلية لمفهوم الانفعالات من خلال علاقتها بالرغبات والمخاوف ومشاعر اللذة و الألم اللذان يمثلان في الفلسفة الأبيقورية المعيارين الحقيقيين؛ لقياس ما يجب وما لا يجب أن يكون؛ للوصول إلى هدوء النفس والسكينة (السعادة).

منهج الدراسة:

إنَّ المنهج الذي سوف نعتمد عليه في هذه الدراسة هو المنهج التحليلي؛ نظراً لتناسبه مع طبيعة الموضوع . وأمَّا فيما يتعلق بخطة الدراسة فقد قُسمت إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة. وفي المقدمة تناول الباحث التعريف بالدراسة وأهميتها, وإشكاليتها الأساسية والهدف منها, مع الإشارة إلى المنهج المستخدم. فقد تناول المبحث الأول: التحرر من الانفعالات التي تتمثل بدايةً في الاحساس. ثم الرغبات, ومشاعر اللذة والألم, وأيضاً موقف الحكيم منها. أما المبحث الثاني فقد تناول: القضاء على المخاوف التي تتمثل في الموت, والبعث, والحساب, والإله؛ وفي النهاية جاءت الخاتمة متناولة لأهم النتائج التي أنتهى إليها الباحث في دراسته.

أولاً- التحرر من الانفعالات:

1- الإحساس:

لقد ركز ابيقور في كتاباته على الحياة العملية, واعتبر المعرفة الحقيقية هي المعرفة الحسية المتكررة التي ترسخ في الذاكرة, وإن ما نطلق عليه نظرية المعرفة كان أبيقور يسميه علم القوانين أو المعايير, وهو العلم بمعايير المعرفة أو قوانينها.(برهييه: 1988م), والمعايير التي قد حددها أبيقور للحقيقة ثلاثة، هي: الإدراك الحسي, والحدس, و الانفعالات؛ وبذلك تبدأ المعرفة عند ابيقور من الإحساس كما ترجع إليه، فأحاسيسنا ومفاهيمنا العقلية ومشاعرنا هي مقياس الحقيقة؛ ويعني بالإحساس الإدراك المباشر للأشياء مجرداً عن كل فعل عقلي أو ذاكرة, لأن الأفعال العقلية والتذكارات تعتمد على الإحساس الذي لا يمكن أن ينقضه أحساس آخر أو إدراك عقلي يباينه في الجوهر.(فخري: 1991م) "فالحقيقة ليست في الأبيقورية توافقاً منطقياً بين قضيتين متناسبتين, ولا تطابقاً بين العقل والأشياء بل الحقيقة هي الواقع, والإحساس هو ما يسمح بتجلي هذا الواقع وبحضوره, ويتولد الإحساس عن تماس حضورين اثنين هما الحاس والمحسوس؛ سواء تعلق الأمر بالإحساسات اللمسية والذوقية أو بالإحساسات البصرية والشمية والسمعية"(أبيقور,1991م, 45), فبالاعتماد على الإحساسات والانطباعات, والمشاعر, نستطيع التمييز بين ما هو واضح وما هو غامض.

أما المعيار الذي يلعب دوراً مهماً إلى جانب الإحساس وهو الانفعالات الذي يمثل المعيار الثالث للحقيقة والمصدر الثالث للمعرفة, فالانفعالات عند الأبيقورية نوعان هما اللذة والألم اللذين يقوداننا في حكمنا على الأشياء وفي التمييز بين ما ينبغي إتباعه وما ينبغي تجنبه, وهما موجودان في كل كائن حي؛ وترى الأبيقورية أن انفعال اللذة مطابق للطبيعة في حين أن انفعال الألم غريب عنها, وبالاعتماد عليهما يمكن التمييز بين الأشياء التي يجدر اختيارها والأشياء التي ينبغي تجنبها كما يُعتبران امتداداً للإحساس, إذ أنهما يتولدان بمناسبة الإحساس وعنه. (أبيقور, 1991م).

بالتالي فإن الانفعالات هي مجموعة اللذات والآلام, وهي إحدى وسائل المعرفة لأن تبعثنا على التفكير في سبيلها(عويضة, 1994م). إذ أن"الإنسان الذي يفكر ويتعقل الأشياء, هو عينه الذي يحس الأشياء, ويشعر بها, وفي الحقيقة إن التفكير يتولد عن الإحساس، بحيث تنجم فكرة اللذة أو الألم عند الإنفعال باللذة أو الألم, بل يمكن القول إننا نفكر لأننا نحس ونشعر, ولأننا نتلذذ ونتألم, فلا غرو حينئذ أن تكون اللذة بالنسبة إلى العقل موضوع رغبة, والألم موضوع خوف وتقزز, وأن يحرص العقل على إختيار اللذة وتجنب الألم" (أبيقور, 1991م, 112).

كما أن الأبيقورية قد حددت أيضاً المعايير النفسية للمعرفة الحقيقية، والتي تمثل جميع أشكال التجربة الطبيعية المباشرة, والطرق التي تتأثر بها نفوسنا المادية تأثراً طبيعياً بالأشياء المادية الأخرى.(أرمسترونغ, 2009م). وهي على النحو الآتي:

(1) مشاعر اللذة والألم, التي هي المعيار النهائي في الأخلاق.

(2) الإحساس.

(3) المفاهيم.

(4) فعل الفهم الحدسي الذي نظفر من خلاله ببعض أنواع المفاهيم.

ولقد كان الهدف من هذه المعايير أو الموازين التي أقامتها الأبيقورية هو أن "نتمكن بتطبيقها في دراسة الظواهر, من معرفة الحد الذي لا ينبغي تجاوزه والقياس الذي لابد من إعتماده حتى نضمن لأنفسنا الحياة السعيدة، وحتى ننعم بالأتراكسيا المنشودة" (أبيقور, 1991م, 44).

وما ينبغي الإشارة إليه هنا أن تأثير المحسوسات في الاحساس عند الأبيقورية كان مرتبطاً بالنفس التي تمثل العلة الرئيسية للإحساس, ولا يتسنى لها ذلك إلا إذا ارتبطت بالبدن الذي يتيح لها أن تمارس قدرتها على الإحساس, وبالمقابل هي التي تجعل الجسم حساساً, فإن تفرق شملهما تبددت النفس.(برهييه, 1988م), ذلك أن النفس في اعتقاد الأبيقورية مادية تُفنى بفناء الجسد؛ لأن مفهوم النفس كما تراه عبارة عن "جسم يتركب من جزيئات دقيقة منتشرة في كامل الجسد, وأنها أشبه ما يكون بنفس مختلط بالحرارة؛ إذ هي مماثلة من جهة

للنفس ومن جهة ثانية للحرارة, إلا أن جزءاً معيناً من النفس يتميز عن النفس والحرارة برقته المفرطة, مما يجعله شديد الاتصال بالجسد؛ وهو ما تثبته بكل بداهة قوى النفس وانفعالاتها وسرعة حركاتها وتأملاتها, وكل الأشياء التي يؤدي فقدانها إلى الموت"(أبيقور, 1991م, 184).

فالنفس عند الأبيقورية تتكون من أربعة أنواع من الذرات: ذرات هوائية، وأخرى ريحية, وأخرى نارية, ثم ذرات من جوهر آخر أكثر لطفًا من كل مما سبق هو على وجه التحديد الجوهر المفكر, والمجموعات الثلاث الأولى تقابل ثلاث حالات للجسم, الأولى تقابل الاستواء والتعادل, والثانية حالة البرودة والثالثة حالة الحرارة. (فيقو, 1958م)؛ وهذه الذرات النفسية لا تتوسط نظام ذرات الجسد، ولكنها تملأ جميع الفراغات أو الانفراجات أو المسام التي تتركها الذرات الجسمية فيما بينها, وأما الذرات الأخف والألطف فهي من بين الذرات النفسية جميعها توجد في الصدر, وعلى وجودها تتوقف حركة الجسم, ومجموعة الوظائف الجسمية, وعملية الإدراك الحسي(فيقو, 1958م).

أما ماهية الجسم عند الأبيقورية لا تختلف كثيراً عن ماهية النفس، فكلاهما مرتبطاً بالأخر من حيثُ أن الجسم هو "ما يسمح للنفس بالإحساس, فهو يأخذ نصيبه منه, غير أنه لا يشارك النفس في كل ملكاتها؛ لذلك فإن الجسد يفقد الإحساس حالما تغادره النفس, لا سيما أنه لا يكتسب الإحساس بذاته وحدها, بل النفس التي تنشأ معه هي التي تولده فيه؛ ذلك أن النفس بعد تنميتها لقدراتها الخاصة عن طريق الإثارة الحاصلة لها وبعد امتلاكها للإحساس, تنقل هذا الأخير إلى الجسد المتصل بها والمطابق لها..., وعلى ذلك فإن النفس لا تنفك تحس أبداً طالما هي حالة بالجسد, حتى في صورة ما إذا انفصل جزء من أجزاء هذا الأخير عنه, ومهما كانت الخسارة الحاصلة للنفس نتيجة ارتخاء كامل الجسد أو بعض أجزائه فإن النفس ستحافظ على الإحساس طالما هي باقية, وعلى العكس فإن الجسد الذي تبقى بعض أجزائه أو يبقى كاملاً يفقد مع ذلك الإحساس إذا ما اندثرت الذرات المكونة لجوهر النفس, ولكن إذا ما انحل الجسد بأكمله فإن النفس تتبدد فلا تبقى ملكاتها, ولا يستثيرها شيء, وتصبح بهذه الصورة فاقدة للإحساس".(أبيقور, 1991م, 184- 185).

وهكذا تكون للنفس الإنسانية وظيفتان: الواحدة حيوية: وهي بث الحياة في الجسم, والأخرى وجدانية: وهي الشعور والفكر والإرادة- أي: الإحساس والوعي- تؤدي الوظيفة الأولى بجواهر لطيفة متحركة حارة منتشرة في الجسم كله, وتؤدي الوظيفة الثانية بجواهر ألطف محلها القلب, الأولى شرط الثانية, والجسم شرط النفس كلها, فإنه أذا انفصلت جواهر الجسم انطلقت النفس وتبددت جواهرها, والنفس الحيوية تتألم بألم الجسم؛ أما النفس المفكرة أو نفس النفس فإن لها من الاستقلال ما تستطيع معه أن تكون سعيدة مهما يكن من حال الجسم(كرم, 2012م). "وعليه فإن القول بلا جسمانية النفس هو مجرد هراء؛ إذ لو كانت النفس لا جسمانية لما أمكنها أن تفعل أو تنفعل. بيد أن النفس تفعل وتنفعل كما هو بديهي بذاته"(أبيقور, 1991م, 185).

فالأبيقورية لا ترى هناك أرواحاً مجردة ولا شيئاً غير المادة, وكل الأشياء مكونة من ذرات، وهذه الذرات تختلف في شكلها ووزنها لا في كيفيتها, والنفس ذاتها ليست إلا ذرات تتفرق عند الموت(عويضة, 1994م).

وتنهض هنا محاولة الأبيقورية لإثبات مادية النفس, وفنائها بفناء الجسد, وفقدانها المطلق للإحساس, في تخليص الإنسان من أوهام الخوف من الموت, وما سيلاقيه في الحياة الأخرى, والخوف من الإله, وهذا ما سيأتي في حديثنا لاحقاً عن المخاوف.

2- الرغبات:

من أجل توضيح دور الانفعالات وأثرها في حياتنا, ومن أجل تحقيق أفضل اللذات وتجنب الآلام والتحرر من الرغائب والمخاوف تذهب الأبيقورية إلى تحليل الرغبات وتصنيفها, فيقول: أبيقور "لابد من إدراك أن رغباتنا تنقسم إلى رغبات طبيعية, وأخرى لا طائل من تحتها, وأن الأولى بعضها ضروري وبعضها الآخر طبيعي فحسب, والرغبات الضرورية بعضها ضروري للسعادة, وبعضها لسكينة الجسم, والبعض الآخر للحياة كلها".(أبيقور, 1991م, 205). أي تنقسم الرغبات إلى رغبات طبيعية وضرورية, و رغبات طبيعية وغير ضرورية ورغبات غير طبيعية وغير ضرورية (أبيقور, 1991م)؛ والرغبات الطبيعية والضرورية لحياة الإنسان هي التي لا مناص من تلبيتها, كالرغبة في الأكل أو الشرب أو النوم, وهذه رغبات لابد من إشباعها, غير أن إشباعها لا يتطلب الكثير. أما الرغبات الطبيعية وغير

ضرورية فهي التي يمكن تلبيتها أو الاستغناء عنها, لأنها تطلب التنوع في إشباع الحاجة مثل: الرغبة في الزواج؛ فأما الرغبات غير طبيعية وغير ضرورية, فهي تلك الرغبات التي يستحسن تجنبها لما تخلفه من عواقب وخيمة: كالجري وراء الكسب أو الطموح, كأن نطمح إلى ملك العالم(أبيقور, 1991م)؛ وأنه بدون إشباع الرغبات الأولى لا يستطيع الإنسان أن يحيا, وبدون إشباع الثانية لا يستطيع أن يكون سعيداً, أما الرغبات الثالثة فيستطيع الإنسان أن يحيا دون النظر إليها (كيلاني, 2013م).

والسؤال هنا: أي هذه الرغبات ينبغي علينا إشباعها, وأيها يحقق اللذة المقرونة بالسعادة؟. للإجابة على هذا السؤال اعتبرت الأبيقورية "أن الرغبات الأولى وحدها تستحق الإشباع, فكل رغبة طبيعية تشير إلى نقص, وإلى حاجة ينبغي سدها, ومادامت الطبيعة تسعى دوماً إلى استرجاع كمالها وتوازنها, فإن كل لذة ناجمة عن إشباع رغبة من الرغبات تعبر عن إزالة نقص ما- أي: عن القضاء على ألم من الآلام- وعلى ذلك لا حاجة للإستجابة إلى غير تلك الرغبات التي إن لم يقع إشباعها تكون منبعاً للألم والحزن. أما الرغبات اللاطبيعية فينبغي الحد منها ونفيها من أجل استرجاع الطبيعة الحقيقية, والاكتفاء بما تقدمه والانصياع لها, وبهذه الصورة يصبح الموقف الطبيعي موقف الزهد, بل الموقف الطبيعي هو بالطبع موقف الزهد"(أبيقور, 1991م, 143)؛ أي اعتبار الأشياء لا قيمة لها في ذاتها, بحيث يصبح التكالب عليها أو الخوف منها عبثاً لا طائل من ورائه؛ فكل ما تنادي به الأبيقوري هو الحد من الرغبات والتقليص منها وتقييدها في كل الظروف فالحكيم هو من يكتفي بذاته وبما لديه من أموال ومن مكاسب, وهو بعدم ازدرائه لمتع الدنيا وباكتفائه بالضروري ينعم بحياة سعيدة (أبيقور, 1991م).

ومن أجل ذلك خصص أبيقور عدة فقرات من رسالته إلى مينيسي يقول فيها: "ولما كانت اللذة هي الخير الرئيس والطبيعي, فإننا لا نبحث عن أية لذة كانت بل نحن نتنازل أحياناً عن لذات كثيرة نظراً لما تخلفه من إزعاج, كما أننا نفضل عليها آلاماً شديدة إذا ما كانت هذه الآلام تسمح, بعد مكابدتها طويلاً, بالفوز بلذة أعظم, وعلى هذا الأساس فإن كل لذة هي في ذاتها خير, إلا أنه لا ينبغي أن نبحث عن كل اللذات, وفي نفس السياق, كل ألم هو شر, إلا أنه لا ينبغي أن نتجنب كل ألم بأي ثمن أيا ما كان الأمر, يجب أن تحسم

القرار في كل ذلك انطلاقاً من الفحص الدقيق لما هو مفيد ولما ضار, ومن المقارنة بينهما, إذ تجدنا أحياناً ننظر إلى الخير كما لو كان شراً, وإلى الشر كما لو كان خيراً" (أبيقور, 1991م, 206- 205).

هذا يعني أن التعقل والتفكير هنا ضروريان لتمييز بين الرغبات للوصول إلى اللذة التي لا يعقبها ألم. فالحياة السعيدة كما يقول: أبيقور لا تتمثل في "السكر المتواصل أو فيما تقدمه المآدب الفاخرة من سمك شهي وأطعمة لذيذة, ولا في التمتع بالنسوة والغلمان, بل تتمثل في العقل اليقظ الذي يبحث عن أسباب أختيارنا لشيء ما أو تجنبنا له, والذي يرمي عرض الحائط الآراء الباطلة التي يتولد عنها أكبر إضطراب تعرفه النفس" (أبيقور, 1991م, 206), "فليس البطن هو الذي لا يشبع بل الرأي الباطل حول قدرته اللامحدودة" (أبيقور, 1991م, 220).

فالأبيقورية ترى أنه لكي يعيش الإنسان حياة طيبة؛ عليه أن يعيش ببساطة وأن يخمد ويطفئ الرغبة، وأن يستجيب للاحتياجات المباشرة للبدن، وأن يستخدم العقل لقيادة التفكير؛ وللاختيار السليم للمتعة. أي الاقتصار على ما هو طبيعياً وضرورياً من تلك الرغبات التي تنتج عن مشاركة الإنسان في الاستمتاع بما هو طبيعي بشكل مباشر؛ فالتعقل والتفكير يمثلان القاعدة التي يجب أن ينطلق منها الإنسان في تحديد ما ينبغي اختياره, وما ينبغي تجنبه, "إذ في ذلك تكمن الحياة السعيدة الحقة, فأفعالنا كلها ترمي إلى أقصاء الألم والخوف, وحالما يتحقق ذلك يضعف هيجان النفس؛ إذ لم يعد الكائن الحي في حاجة إلى الاتجاه نحو شيء ينقصه أو إلى البحث عن شيء آخر يتمم به راحة النفس والجسم, وفعلاً نحن لا نحتاج إلى اللذة إلا عندما يكون غيابها سبباً في الشعور بالألم, في حين أن غياب الشعور بالألم لا يجعلنا بحاجة إلى اللذة" (أبيقور, 1991م, 205).

وبتعبير آخر فإنَّ حرية الحكيم إزاء ضغط الرغبات وضرورة إشباعها تكمن عند الأبيقورية في معرفته للحدود التي ينبغي أن يتوقف عندها، وأن يوجه سلوكه طبقاً لها؛ فمن يجيد معرفة الحدود التي ترسمها لنا الحياة, يدرك كم من السهل على المرء أن يتزود بما يقضي على الألم الناتج عن الحاجة, وبما يجعل الحياة كلها كاملة, فلا يحتاج إلى الأشياء التي يقتضي الحصول عليها بذلاً للمجهود. (النشار, 2013م)؛ فاللذة لا تكون في كثرة الحاجات

وسدها, بل إن كثرة الحاجات تجعل من الصعب سدها, وهي تركب الحياة من غير أن تزيد في السعادة فخير لنا أن نقلل حاجاتنا جهد الطاقة؛ فأبيقور نفسه كان يعيش عيشة بسيطة ويحث تلاميذه على بساطة العيش, ويقول إن البساطة والاعتدال وابتهاج النفس وضبطها أهم وسائل السعادة, وأكثر طلبات الإنسان وحرصه على الشهرة ليس بضروري بل لا قيمة له(عويضة, 1994م).

فالسعادة تبدو أكثر ما تبدو لدى الإنسان البسيط القادر على التمتع بكل ما هو طبيعي وضروري من رغبات؛ لأنه هو القادر على إشباعها دون أن يطلب المزيد والمزيد؛ فالفقر المتزن مع حاجاتنا غنى وفير, وعلى العكس من ذلك؛ فالغنى فقر مدقع بالنسبة إلى من لا يعرف حدوده(النشار, 2013م).

إذن يجب على الإنسان لكي يعيش حياة خالية من كل انفعال وتأثر يقلل من حاجاته قدر الإمكان, بل يجب عليه أن يعيد صياغة مفهومه للحاجة والكسب والثراء والفقر.(فخري, 1991م).

وهكذا كان المفهوم الذي وضعته الأبيقورية للرغبات يعتبر مضمون الأخلاق العملية, ذلك أن الغاية الأساسية للإنسان هي البحث عن السعادة, وهذا لا يتحقق إلا بالوصول إلى اللذة، والتخلص من الألم فاللذة– عند الأبيقورية هي بداية الحياة السعيدة وغايتها.

3- إنفعال اللذة والألم:

لقد دعت الأبيقورية إلى تحصيل واتباع اللذة التي تمثل الخير الأسمى والحقيقي والهدف النهائي لكل أفعالنا, حيثُ يقول: أبيقور "واللذة هي الخير الحقيقي, وأن العقل نفسه يقتضيها ولا يعارضها؛ إذ أن العقل ليس مناقضاً للطبيعة, وليس شيئاً غريباً عنه"(أبيقور, 1991م, 112)؛ "وليس هذا الخير الأسمى أو الأتراكسيا رهين اللحظة الحاضرة, بل هو خير يدوم في الزمان وخير غير منقطع, كما أن الآلام الحاضرة, لا تستطيع مهما كانت شدتها, أن تقضي عليه, لأن الحكيم يشعر بالسعادة حتى لو كان داخل ثور فالاريس" (أبيقور, 1991م, 122).

كما كانت انفعالات اللذة الألم عند الأبيقوريين هي أساس فلسفتهم الأخلاقية, التي دارت حول فكرتين محوريتين يبدو ظاهرياً صعوبة التوفيق بينهما, وهما: الدعوة إلى اللذة

التي في نظرهم مسألة طبيعية وبديهية؛ فالإنسان والحيوان على السواء يطلبانها في الوقت الذي يتحاشيان فيه الألم منذ لحظة الميلاد, وبدون أن يتعلما ذلك تعلماً؛ أما الفكرة الثانية فهي: أن الحكيم الحق هو من استطاع تحرير ذاته من جيشين, الرغائب والمخاوف التي تقيد الإنسان العادي وترهقه, ومن ثم هو القادر على أن يعيش حالة الأتراكسيا, بما فيها من طمأنينة وخلو من الهموم وسلام النفس وصفاء للعقل(برهييه, 1988م). فالأبيقورية تدعوا إلى التخلص من انفعالات اللذة والألم من أجل الوصول إلى"الأبونيا- أي: القضاء على الألم الجسماني بإسترجاع التوازن الفيزيولوجي- والأتراكسيا- أي: السكينة والطمأنينة الناتجتين عن القضاء على الخوف من المستقبل"(أبيقور, 1991م, 122).

وقد حددت الأبيقورية موقفها من اللذة والألم في عدة قواعد وفقاً لاعتبارات عقلية وهي:

- خذ اللذة التي لا يعقبها ألم, يعني أن تعتبر العمل الذي ينتجها خيراً.
- فر من الألم الذي لا يجلب أي لذة.
- أُرفض اللذة التي تحرمك من لذة أكبر منها, أو التي تسبب لك ألماً أكبر.
- اقْبِل الألم الذي يخلصك من ألم أكبر, أو الذي يجلب لك لذة أعظم(نصار, 1982م).

وهنا كان السؤال أي نوع من اللذة التي يجب علينا تحصيله؟ لكي يُجيب أبيقور على هذا السؤال يُقسم اللذة إلى نوعين هما لذة النفس, ولذة الجسم, ويرى أبيقور أن لذة النفس؛ أكبر قيمة وأبقى من اللذة الجسمية, ولعل ذلك يعود إلى أن لذة النفس تشمل عنده لذة اللحظة الحاضرة, وذكرى اللذة الماضية وتوقع اللذة المقبلة, في حين أن لذة الجسم محصورة في حدود اللحظة الحاضرة . (مجموعة مؤلفين, المعلة, 2013م)؛ بالرغم من أن لذة الجسم عنده هي أصل كل اللذات التي لا يعدو أن يكون تنوعها مجرد تنوع لموضوعاتها, فلذات النفس لا تختلف عن لذات الجسم, بل هي متأصلة فيها رغم مقابلتها لها, أي أن اللذات الروحية عبارة عن أوجه مختلفة لنفس اللذة الواحدة التي هي اللذة الجسمية, بمعنى: أن كل لذة مهما تنوعت, ومهما ابتعدت في الظاهر عن الإحساس, تتأصل دائماً وكشرط ضروري لها في الشعور بالراحة الجسمية؛ فهي مشروطة إذن براحة الجسم, بل هي راحة

الجسم عينها, بحيث يقتضي القول بواحدية اللذة ويقتضي ردها إلى اللذة الجسمية وجود قاعدة فيزيولوجية تسمح الإحساس بالراحة الحاصلة عن التوازن بين مجمل وظائف الجسم, وعلى ذلك فإن اللذة الأبيقورية عبارة عن توازن بين مختلف أعضاء الجسم الحي ومختلف وظائفه, ذلك التوازن الذي يعبر عن صحة الجسم وسلامته وعن انعدام الشعور بالألم(أبيقور, 1991م).

كما نجد الأبيقورية قد ربطت بين اللذة الجسمية واللذة النفسية والعقلية من خلال الذاكرة والمخيلة, أي التذكر والحدس الذهني اللذين بواسطتهما يمكن الإنتقال من لذة الحواس إلى لذة النفس, دون أن يكون هناك فرقاً جوهرياً بين الجسم والنفس, ودون أن يتغير معنى اللذة (كرم, 2012م)؛ حيثُ أنه من خلال مران الذاكرة والتخيل يضعف الإحساس الحاضر بالألم إلى حد الزوال لأن الجسم لا يشعر باللذة والألم إلا عندما يدومان والجسم لا يملك في ذاته ذاكرة ولا استباقاً معرفياً. فمشاعرنا التي يؤديها إلينا الحس في وقت من الأوقات ترتبط بالوضع النفسي والحالة السيكولوجية التي نكون عليها في ذلك الوقت الذي تحدث فيه تلك المشاعر, فإذا ما كنا حينذاك في حالة حزن وقلق واضطراب نفسي فإن المؤثرات اللطيفة لا تكاد تؤثر فينا مهما بلغت قوتها, في حين أن أدنى ألم يجعلنا نحس ونتألم به في عنف لا يقاوم, وعليه يمكننا باستخدام الذاكرة والحدس الذهني تثبيت اللذة العابرة وتخفيف الألم الوقتي؛ أي يمكننا استدعاء وتذكر اللذات الماضية, وهذا في حد ذاته لذة, ويمكننا أيضاً الرجاء في لذات مستقبلية وتخيلها, (النشار, 2013م). فالذكريات التي يمكن أن تستحضرها النفس كما يقول: أبيقور "قادرة على التخفيف من الآلام الحاضرة وعلى تعويضها بالمتع القديمة, كما أن توقع اللذات الممكنة في المستقبل يفتح المجال للأمل في ألاَّ تزول اللذات الحاضرة"(أبيقور, 1991م, 122).

وبناءً على ذلك ترى الأبيقورية أنه يجب على النفس التلذذ بماضي اللذات والاستمتاع بحاضرها والتفكير في الأمل في اللذائذ المقبلة. حتى لو كان ذلك في أصعب الظروف الانسانية. ذلك إنَّ المرء في أشد أحوال الحاجة كما في الجوع أو المرض أو الألم الشديد كأن يكون خاضعاً لأقصى أنواع التعذيب فليس هناك ما يمنعه أبداً من تذكر لحظات اللذة والمتعة

السابقة ليريح نفسه بذلك. فليس هناك في الشقاء الحاضر ما يمكن أن يفوق في قدره ما هو مختزن في الذاكرة من متع الماضي إذا كان المرء قد عاش حياة طيبة حقاً(كارس, 1998م).

فالنفس تستطيع بفضل حريتها أن تستبعد الأفكار التي تحزنها, وأن تتجه بكليتها إلى الصور التي تمثل لها اللذة التي تذوقت طعمها, فهي حينما تتعلق بهذه الصور تعلقاً قوياً, ترد إليها حيويتها التي كانت لها بالذات حينما كانت احساسات فعلية, وبذلك يصبح بإمكاننا أن نتغلب على الألم الذي يعانيه جسمنا في الوقت الحاضر.(مجموعة مؤلفين, المعلة, 2013م).

كما أن حياة الذكريات والآمال التي تدعو أليها الأبيقورية هنا هي التي أسعفت بالطمأنينة والسكينة أبيقور وقد طعن في السن وتكالب عليه المرض؛ فقد كتب إلى أيدومانايوس وهو على شفا الموت يقول: "أكتب إليك في نهاية يوم سعيد من أيام حياتي: فأوصابي لا تفك طوقها عني وما عاد في مقدورها أن تزيد عما هي عليه, وكل ذلك أقابله بالفرح الذي أسكنته في نفسي ذكرى مناقشاتنا الماضية"(نقلاً عن برهييه, 1988م, 124).

فالأبيقورية تمقت كل تفكير في ماضي الآلام, وكل تشاؤم يجر إلى التفكير في المتوقع منها في المستقبل وتعده خروجاً بالروح عن طبيعتها(عويضة, 1994م)؛ فليس للنفس عمل إلا التلذذ بماضي اللذات والاستمتاع بحاضرها والتفكير في الأمل في اللذائذ المقبلة؛ وأن يكون ذلك بحكمة لأنها الفضيلة الوحيدة التي تستطيع أن تضمن تحقيق التوازن المطلوب بين حاجاتنا ورغباتنا.

ثانياً: القضاء على المخاوف

لقد رأت الأبيقورية أن الإنسان قد ملئ خوفاً من الله ومن العقاب على أعماله, ومن الموت بسبب ما قيل عن الحياة بعد الموت؛ وهذا الخوف أكبر منغص لحياة الإنسان ومضيع لسعادته, فإذا ذهب الخوف تخلصنا من أكبر عائق يعوق السعادة, ولا وسيلة إلى إزالة هذا الخوف إلا بدراسة الطبيعة, وفهمنا أن هذا العالم آلة ميكانيكية, محكوم بأسباب طبيعية لها نتائجها الطبيعية, وليس فيه كائنات فوق الطبيعة, والإنسان في العالم حر, يبحث عن

سعادته حيثُ كانت وكيفما يريد, وهو حر الإرادة ووظيفة الفلسفة أن تعين على تحقيق سعادته في هذا العالم(عويضة, 1994م) .

وترى الأبيقورية أن تلك المخاوف قد ارتبطت بعدة أوهام رسختها المعتقدات الشعبية والدينية التقليدية في النفس الإنسانية، حتى أصبحت تسبب الذعر الإنساني, وهي :

- الوهم بعدم إمكانية الحصول على السعادة.
- الوهم بعدم التخلص من الألم.
- الوهم بأن الآلهة تراقب جميع افعالنا وسوف تعاقبنا وتحاسبنا بعد الموت.
- الوهم بأن الموت ألم ومصيرنا بعده قد يكون ألم دائم أو سعادة دائمة .

وللتخلص من تلك الأوهام والمخاوف وضعت لأبيقورية أربع أدوية يرتبط الأول والثاني منها بالعلم الفيزيائي, والثالث والرابع يرتبطان بالعلم السيكولوجي, وتتمثل هذه الأدوية في:

- السعادة والتي هي الخير الوحيد سهلة الحصول إذا استطاع الإنسان أن يعيش معتمداً على عقله.
- الألم وهو الشر الوحيد والذي يسهل تجنبه؛ لأنه إذا كان قوياً لن تكون فترته طويلة, أما إذا كانت فترته طويلة فلن يكون قوياً, وأخيراً فإن الألم في حد ذاته ليس فظيعاً, الفظيع هو الخوف منه.
- لا داعٍ للخوف من الآلهة لأنها لا تتدخل في الحياة الإنسانية لا يهمنا على الإطلاق, لأنه طالما كنا موجودين فلا وجود للموت وعند وجود الموت فنحن لا نوجد, والفلسفة السليمة هي التي ستحل باقي المشكلة(كيفتش, 2012م)؛ وسوف نعرض ذلك بالتفصيل من خلال تنولنا للخوف من الموت والآلهة.

1- الخوف من الموت.

لكي تزيل الأبيقورية الخوف من الموت تحدد منذ البداية, أن أساس تركيب العالم الطبيعي من الذرات المادية هو أيضاً أساس وجوهر الجسم الإنساني. (كبلستون, 2002م)؛ فبما أن النفس مركبة من ذرات, فهي أذن لن تستطيع بالطبع مواصلة الحياة بعد انحلال

الجسد وفنائه؛ فالموت يكون نتيجة إنحلال الذرات النفسية وتوقفها عن الإحساس والإدراك؛ بالتالي يكون الموت هو انعدام الإحساس(النشار, 2013م).

فوجود النفس في الحياة أذن محكوم بالموت, والاعتقاد بخلود الروح هو مجرد وهم؛ فنحن على حد قول: أبيقور "عندما نكون فالموت لا يكون, وعندما يكون الموت فنحن لا نكون, وعلى هذا فالموت لا يعني الأحياء ولا الأموات؛ لأنه لا يمت بصلة إلى الأحياء, ولأن الأموات لم يعودوا بعد موجودين" (أبيقور, 1991م, 204).

فلا شيء في الموت أذن يدعو إلى الخوف عند الأبيقورية, مادام الموت فقداناً للإحساس والإدراك, فالخوف منه هو خوف من لا شيء ولا مبرر له, فالإنسان لن يشعر بالألم بعد الموت, لأنه بوجود الموت تنتهي الحياة؛ فلا داعٍ إذن للخوف من تلك الأوهام المتعلقة بالموت وما يعقبه من ثواب وعقاب, وعلى الحكيم أن يدرك خطورة الوقوع في براثن تلك المخاوف والخرافات الشعبية والدينية؛ لأنها تتسبب في اضطراب الإنسان وانزعاجه (عبد العزيز, ب, ت).

فالأبيقورية ترى أنه علينا ألا نعير أية أهمية لما يًقال عن ما بعد الموت نظراً لانعدام الإحساس بالمتعة أو بالألم عند حدوثه, لأن ما ينحل يصبح غير قادر على الإحساس, ولأن ما لا يحس هو لا شيء بالنسبة إلينا (أبيقور, 1991م), فمن يفهم ذلك سيتأكد بأنه لن يواجه بعد الموت آفاقاً لا نهائية للمعاناة, وسيركز على حياته التي يعيشها, وسيتمكن من إحراز السعادة (كيفتش, 2012م).

ولقد رأت الأبيقورية أن سبب الخوف من الموت هو أنه متأصل في العقل والخيال معاً, لأن الإنسان يعلم جيداً أن مصيره الانحلال والموت, كما أنه يتخيل في نفس الوقت طبيعة هذا الموت الذي لن يختبره بنفسه إلا لحظة النهاية, وما سيحدث لجسده بعد أن يكف عن الحركة وأن تغادره الحياة؛ وعلى ذلك نجد الإنسان يتخيل دائماً الحالة التي سيكون عليها جسده بعد الموت فيتقزز لتصوره له جثة هامدة داخل القبر أو بدونه، تتقاسم أشلاءها الحشرات والحيوانات. ونجد هذا الإنسان, عند موت بعض أقاربه, شديد الحسرة وكثير البكاء والعويل, كما يكون حريصاً على القيام بكل ما تقتضيه الطقوس في مثل هذه الظروف, من

غسل بالماء الدافئ ومن لف بالثياب ورش بالعطور, كما لوكان الميت لم يفقد بعدكل شعور وكل أحساس(أبيقور, 1991م).

فهذه التصورات عن ما سيلاقيه الإنسان بعد الموت والحياة الأخرى في رأي الأبيقورية ليست إلا ضرباً من الوهم الذي يصور لنا امتداد هذه الحياة, وبالتالي يجعلنا ننظر نظرة رجعية إلى الوراء أو أمامية- والمعنى هنا واحد- فنعتقد أنفسنا في وضع الغد- الغيب- ونتصور جسمنا وقد انحل إلى أجزاء، وأصبح جثة يأكلها الدود، فهذه الصورة للإنسان هي التي تُحدث الجزع من الموت, مع إننا في هذه الحالة, حالة تحلل الجثة, لا نشعر بشيء؛ لأننا غير موجودين من بعد, فلا داعٍ إذن لتحقيق هذه النظرة الرجعية, كما أنه لا داعي مطلقاً للتفكير فيما بعد الموت؛ لأن ما بعد الموت لا يعنينا اطلاقاً, ولهذا يجب أن نتخلص من هذا الوهم: وهم الجزع من الموت حتى نحيا الحياة السعيدة التي نرجوها(بدوي, 2010م).

كما ترى الأبيقورية أن مصدر الفزع والرعب من الموت هو سوء وخطأ فهم الناس لطبيعة الموت؛ فقد نشأت أخطاؤهم وتصوراتهم الخاطئة ونمت بطرق متعددة, حيثُ تملكتهم خرافة أن الروح غير مادية وأنها لذلك لا تفنى مع البدن وكان هذا من تعاليم أفلاطون. وعلى ذلك اعتقدوا أنهم إذا ماتوا فسيكونون عرضة لأنواع من العقاب من الإله نتيجة لما ارتكبوه من أعمال سيئة. أو أنهم اعتقدوا أنهم سيولدون من جديد في لون من الحياة لا يريدونه ولا يرضون عنه(كارس, 1998م). فنحن كما تعتقد الأبيقورية "نولد مرة واحدة, ولا ينبغي أن نأمل في ولادة أخرى"(أبيقور, 1991م, 216).

ففكرة الجزاء الإلهي, وخلود النفس أو الحياة الأخرى عند الأبيقورية يجب استبعادها ورفضها, وأن لا نتأثر بها؛ ذلك أن اللذة لا تقاس بمدتها, وإنما تقاس بشدتها, وعلى الحكيم أن يقتصر على هذه الحياة التي يحياها وحدها, ولن يحيا غيرها, وأن ينعم فيها بأقصى لذة ممكنة بأن يكون خالياً من كل تألم, مطمئن النفس كأنقى ما تكون الطمأنينة, وخير طريقة للمرء ينتظر بها المستقبل, أو خير طريقة لانتظار الغد, ألا ينتظر المرء من الغد شيئاً(بدوي,2010م).

فسعادة الإنسان ليست متوقفة على خلوده بل الخلود لا يضيف شيء إلى السعادة الحاضرة, فالشيء المهم حقاً في المتعة ليس دوامها وتواصلها في الزمن بقدر ما هو غزارتها ونقاوتها من كل ألم(أبيقور, 1991م).

وهكذا ترى الأبيقورية أن تأثراً الإنسان بتلك التصورات والتخيلات والأوهام عن الموت هو ما يفسد على الإنسان حياته الحقيقية التي يجب أن يحياها, والتي لن يحيا حياة غيرها.

2- الخوف من الآلهة:

فيما يخص الخوف من الآلهة وصلتها بالعالم وتدخلها في حياة الإنسان, ذهب الأبيقوريون إلى تفسير الطبيعة تفسيراً مادياً ذرياً بما في ذلك الإنسان، فقد رأوا أن العالم لم يخلق بواسطة الآلهة, لأن العالم في نظرهم يتكون من أجسام صغيرة للغاية وغير قابلة للقسمة وللانحلال, ومن خلاء ضروري لحركة الأجسام التي باصطدامها ببعضها البعض وبتجمعها وجد العالم المادي بمختلف أشكاله. (أبيقور, 1991م).

فالأشياء تتخلق عندما يحدث أن تتصادم أعداد كبيرة من الذرات قادمة من اتجاهات مختلفة وترتد الواحدة بعد اصطدامها بالأخرى لتكون كتلة لها ثبات أو رسوخ مؤقت؛ ولا تتوقف هذه الذرات عن الحركة داخل هذه الكتلة ولكنها في حيزها المحصور تصنع بتأثير ضغط الواحدة منها على الأخرى قالباً دقيقاً من التغيرات(كارس, 1998م).

كما رأى الأبيقوريون أيضاً أنه "لا يولد شيء من لا شيء, وإلا أمكن لكل شيء أن يتولد عن كل شيء دونما حاجة إلى أي بذر, ولو كان كل ما يغيب عن الأنظار يتحول إلى عدم لانقرضت الأشياء جميعها؛ إذ إنها ستتحول إلى أشياء غير موجودة. فالكون منذ القدم على نحو ما هو عليه الآن, وسوف يبقى هو عينه إلى الأزل. وفعلاً لا يمكن للكون أن يتحول إلى شيء إذ لا يوجد شيء خارجه ليلج فيه ويحدث فيه التغير"(أبيقور, 1991م, 176).

ولقد وضف الأبيقوريون مذهبها المادي الذري في التدليل على عدم تدخل الآلهة في خلق العالم وشئون البشر؛ فقد كان العالم بالنسبة لهم هو عالم لا يمكن أن يكون فيه آلهة نطيعهم ولا نظام كلي شامل علينا أن نلتزم به, فالحياة لا توجد لسبب ولكنها عارضة, كما

أنها لا تستهدف غاية ما وليس لها خالق تدين له بالوجود؛ وإن الحياة كما ظهرت مصادفة بلا علة أو سبب لها فإنها كذلك ستختفي دون أية بقية او أثر باق على أي شيء آخر, ومادامت الروح مثل البدن مادية فإنها لن تحيا بعد موت البدن؛ أما ذراتها الدقيقة فستبدد في الهواء مثل الدخان (كارس, 1998م).

فالعالم عند الأبيقوريين لا يحكمه قانون مسبق, ولا يخضع للقضاء والقدر, ولا ينظمه إله خالق ومدبر يعتني بالكون(عبد العزيز, ب, ت)؛ ذلك لأن الطبيعة مستقلة في نظرهم عن الآلهة الذين لا يستطيعون إدارتها حتى إذا أرادوا ذلك. وأما تدخل زيوس وبقية الآلهة بصورة متصلة في شؤون البشر كما يرد في الإلياذة والأوديسيا عند هوميروس فإنه لا يتجاوز نطاق الأساطير(كيلاني, 2013م)؛ حيثُ يقول: أبيقور مخاطباً هيرودوت "وفيما يتعلق بالأجرام السماوية لا يجب الاعتقاد بأن حركتها وتغير اتجاهها وكسوفها وشروقها وغروبها وكل الظواهر الأخرى التي من نفس القبيل هي ناتجة عن فعل كائن منظم لها"(أبيقور, 1991م, 188). فلا وجود للعناية وللقدر في نظر الأبيقورية فكل الأشياء هي من نتاج المصادفة؛ فالذرات وحركتها الأبدية التي تعتمد على الصدفة هي التي تخلق كل ما نراه في الكون.

ومع ذلك لم ينكر الأبيقوريون وجود الالهة بل على العكس أقروا بوجودها ورأوا أن وجودها ضروري, فهي على حد تعبيرهم عالم مؤلف من موجودات تختلف مع البشر في مادتها, لأنها مكونة من ذرات لطيفة شفافة ناعمة الملمس, ويختلفون عنهم في أساليب الحياة فلا ينامون مثلهم لأن النوم قد تتخلله أحلام مزعجة, والآلهة لا ينزعجون ولا يضطربون, وهم يأكلون من طعام خاص بهم, لأن طعام البشر لا يتفق مع طبيعتهم, وهم يتكلمون فيما بينهم باللغة الإغريقية, إذ هي وحدها الجديرة بمقامهم, وهؤلاء الآلهة عنده لا ينشغلون بهذا العالم البتة, ولا يكلفونه بطقوس دينية, ولا بأوامر اجتماعية, ولا يطلبون منه تضحيات وقرابين؛ وبالإجمال لا صلة بينهم وبين هذا الكون, وإنما هم يعيشون في الخلاء الذي بين العوالم سعداء مغتبطين لا ينغصون أنفسهم بآلام هذا العالم وأحزانه (عويضة, 1994).

لقد كانت الآلهة عند الأبيقورية تتصف بصفتين رئيستين: الأولى صفة الدوام, والثانية صفة السعادة. فالآلهة متصفون أولاً بالدوام, ولكي يكونوا كذلك فيجب أن نتصور أجسامهم وكأنها أجسام أثيرية لا تخضع في الواقع للتغير؛ وكان علينا من ناحية أخرى ألا

نتصورهم في مكان عادي يخضع دائماً للحركات والتغير, وإنما يجب علينا أن نودعهم في مكان قد خلا من معالم الفناء, (ما بين العوالم) وفي هذا المكان يحيا الآلهة حياتهم الدائمة, في سعادة والسعادة هنا هي الخلو المطلق من كل ألم, أي الطمأنينة السلبية أو الأتراكسيا (بدوي, 2010م).

وترى الأبيقورية أن هناك عدة أدلة على وجود الآلهة وهي, أولاً: إذ يدل على وجودهم أنهم موضوع فكرة سابقة شائعة في الإنسانية جمعاء, والفكرة السابقة تتكون بتكرار الاحساس, وكل احساس فهو صادق, وأساس هذه الفكرة السابقة الخيالات التي تتراءى لنا في المنام وفي اليقظة, والتي لابد أن تكون منبعثة عن الآلهة أنفسهم. ثانياً: عندنا وجود دائم سعيد, والآلهة يقابلون هذه الفكرة, أي أنها مباركة وسعيدة وخالدة لا تفنى. ثالثاً: ضرورة تحقيق مبدأ التوازن في الكون ذلك أن لكل شيء ضد يحقق المعادلة في الوجود, فلا بد أن يقابل الوجود الفاني المتألم وجود دائم سعيد(كرم, 2012م)؛ ورابعاً: لكي يكون هناك جمال كامل في العالم, ولكي يأثر الانسان لنفسه مثلاً أعلى للفضيلة والحياة السعيدة, عليه أن ينظر إلى الآلهة باعتبارهم موجودين, وكأنهم هم هذه الصورة العليا للفضيلة والجمال, وإن كانت في الواقع من خلق الأماني والأمل, أكثر من أن تكون من خلق الواقع والعقل(بدوي, 2010م).

وهكذا لم يكن الأبيقوريون ملحدون لاعترافهم بوجود الآلهة, ولكن ما يرفضونه هو الأساطير التي أسندها الجمهور إليها, فعدت الأفكار التي تسند إلى طبيعتها دوراً في خلق العالم وتلاحق الزمان من أخطر الأفكار؛ إذ رأى أبيقور أنه ليس للآلهة أي دور في مصير العالم, فلا داعي للخوف منها, كما حرص على تجريدها من أسلحتها وسلبها ما تبثه من مخاوف فهي تعيش في الفضاء بين النجوم حياة خالدة وهادئة ومنعمة, وهي لا تتدخل في شؤون العالم لأنها سعيدة سعادة كاملة؛ فلماذا تثقل عاتقها بأثقال ذلك الذي لا يعبأ بها؟ وحياتهم هي حياة الفرح الذي لا يكدره شيء بالمرة (عويضة, 1994).

وهذا يعني أنه لا وجود للعناية من وجهة نظرهم , لأن العناية معناها الاهتمام, والاهتمام مصدره الهم, والهم هو التأثر, فالعناية الإلهية تقتضي التأثر, ولما كان الآلهة يحيون حياة سعيدة أي خالية من كل تأثر, كان لا بد إذن أن يسلب عنهم فكرة العناية, فهم

يحيون وحدهم في عزلة غير آبهين بشأن من شؤون هذا العالم(بدوي, 2010م)؛ فالخوف والقلق والاضطراب يمكن أن يحدث للنفس البشرية عندما "نظن أن الأجسام السماوية كائنات مغتبطة وخالدة, في حين أننا ننسب إليها في نفس الوقت صفات متناقضة للغبطة والخلود, كالرغبات والأفعال والأغراض"(أبيقور, 1991م, 189), "إذ المشاغل والهموم والغضب والمحاباة لا تتفق مع الغبطة, بل هي مقترنة بالضعف والخوف والتبعية". (أبيقور, 1991م, 188)؛ كما "ينتج الاضطراب أيضاً عن كوننا نصدق بالأساطير فنترقب أو نتوقع عذاباً أبدياً"(أبيقور, 1991م, 189).

وهكذا كانت الآلهة عند الأبيقوريين بعيدة بعداً لا يستطيع معه أن تضر أو تنفع, فلا يستطيع أن تراقب أو أن تحكم على الأعمال أو أن تقذف البشر إلى الجحيم. فهي لا تتدخل في حياة البشر ولا تغير مجرى الاحداث عقاباً لهم أو مراعاة لبعضهم, فمثل هذا الاعتقاد يولد في نفس الإنسان الخوف, الذي لا خلاص منه طالما لم يتم رد الظواهر إلى أسباب طبيعية محض. (عبد العزيز, ب- ت).

لقد كانت الرسالة التي يريد الأبيقوريين تبليغها إلى الآدميين هي أن الآلهة منزهة عن كل الصفات التي ألحقت بها, أي أنها ليست آلهة حقودة شريرة كما تُصورها الأساطير والخرافات الشعبية, بل هي تنعم بالخير المطلق الذي ليس غير الأتراكسيا, غير مبالية بما يدور في العوالم المحيطة بها وغير مكترثة بما يحدث للإنسان أو بما يفعله. وبناءً على ذلك لا مبرر للخوف من الآلهة (أبيقور, 1991م).

فالأبيقوريون أرادوا هنا معالجة ذلك الفكر الخاطئ المتوارث عبر الأجيال لينتقل بهذه المعالجة من العبادة، القائمة على الخوف إلى العبادة القائمة على محاكاة نموذج السعادة والكمال الدائم والسعيد الذي تمثله الآلهة المجبولة من مادة نقية خالصة لا يتطرق إليها الفساد، والذي يطمح الفيلسوف إلى الوصول إليه متخلصاً ومتحرراً من الوجود الفاني المتألم، فعبادة الأبيقورية للآلهة وإجلالها لها مرده أن هذه الآلهة تمثل نموذج السعادة والكمال اللذان يطمح الفيلسوف إلى تحقيقهما لنفسه. لذلك نرى أبيقور يختم رسالته إلى مينيسي مصرحاً أن الأتراكسيا التي تسمح الفلسفة ببلوغها سوف تجعل منه إله يعيش بين الخيرات الخالدة. (ابيقور, 1991م).

الخاتمة:

يمكننا أن نستنتج بشكل عام مما سبق دراسته, ما يأتي:

إنَّ الأبيقورية تهدف إلى تأسيس فلسفة إنسانية، تستبعد كل فكراً يّقلق الأنسان ويجعل حياته شاقة, وتعيسة, فوضعت مبادئ وأسس ومنطلقات ومعايير جديدة للتفكير, من خلالها يستطيع الإنسان أن يعيد النظر والتبصر والتحقق في كل المفاهيم الموروثة المتعلقة بخلق العالم ومصيره ووجوده وغايته, والفضيلة والرذيلة, والخير والشر, والموت والبعث, والجزاء والعقاب, والآلهة ودورها في الحياة والعالم,... الخ , لاستحدات مفاهيم جديدة حقيقية تجعل من الحياة أكثر جمالاً ومتعة وسعادة؛ وهذه المبادئ والأسس والمنطلقات والمعايير تمحورت عند الأبيقورية في الآتي:

أولاً: إنَّ غاية الوجود الإنساني هي السعادة، والوجود الإنساني لا يكتمل إلا بتحقيقها؛ ويجب على الإنسان أن يسعى للوصول أليها.

ثانياً: إن الإنسان حر الإرادة, فلا توجد قوة تفرض قوانينها أو تتدخل في حياته, أو تشاركه في تحديد خيراته وتحقيق رغباته, فعليه قبل كل شيء السيطرة على الرغبات ومن ثمَّ تحديد خيراته.

ثالثاً: إنَّ موروثنا الفكري والثقافي والديني يحتوي على مفاهيم وتصورات وأفكار خاطئة, عن خلق العالم, والظواهر الطبيعة, والإلهة ودورها, والموت والبعث, والثواب والعقاب, فيجب على الإنسان أن يسعى إلى تصحيح تلك التصورات والأفكار والمفاهيم.

رابعاً: إنَّ العوالم والظواهر الطبيعية, والأشياء والحوادث, تحكمها وتنظمها قوانين وعلل مادية, فيجب على الإنسان البحث والكشف عنها.

خامساً: إنَّ التأمل والتفكر والتذكر والتخيل, هي الحياة التي من خلالها نصل إلى غاية وجودنا في سعادة أو خير أسمى، فعلى الإنسان أن يتعلم الفلسفة، وينمي قدرته على التأمل والتفكر والتخيل والتذكر.

سادساً: هناك انفعالات ومخاوف كامنة وراء حزننا الشديد وقلقنا واضطرابنا الدائم في هذه الحياة, فعلى الإنسان تحديدها ومعرفتها؛ ومن ثمَّ التحرر والخلاص منها والقضاء عليها.

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- أبيقور, (1991م), الرسائل والحكم, دراسة, ترجمة: جلال الدين سعيد, الدار العربية للكتاب ب- ط, القاهرة, مصر.
- معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية, (2004م), دار الجنوب للنشر, ب- ط, تونس.

ثانياً: المراجع العربية:

- النشار, مصطفى, (2013م), تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي, المدارس الفلسفية اليونانية في العصر الهللينستي, ط1, الدار المصرية اللبنانية, القاهرة, مصر.
- بدوي, عبد الرحمن, (2010م), خريف الفكر اليوناني, ط1, مركز عبد الرحمن بدوي للأبداع, القاهرة.
- عويضة, كامل محمد محمد, (1994م), أبيقور مؤسس المدرسة الأبيقورية, ط 1, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان.
- فخري, ماجد, (1991م), تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس (585 ق. م) إلى أفلوطين (270 م) و(برقلس,485م), ط 1, دار العلم للملايين, بيروت, لبنان.
- كرم, يوسف, (2012م), تاريخ الفلسفة اليونانية, ط2, دار العالم العربي, القاهرة, مصر.
- كيلاني, مجدي السيد أحمد, (2013م), المدارس الفلسفية في العصر الهللينيستي, ط2, المكتب الجامعي الحديث, الإسكندرية, مصر.
- نصار, محمد عبدالستار, (1982م), دراسات في فلسفة الأخلاق, ط1, دار القلم, الكويت.

ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة:

- أرمسترونغ, أ.هـ., (2009م), مدخل إلى الفلسفة القديمة, ترجمة: سعيد الغانمي, ط1, المركز الثقافي العربي, أبو ظبي, الأمارات.

- برهييه, أميل, (1988م), تاريخ الفلسفة, الفلسفة الهلنستية والرومانية, ترجمة: جورج طرابيشي, ج2, ط2, دار الطليعة للطباعة والنشر, بيروت, لبنان.
- فيقو, ألبير,(1958م), الفلسفة اليونانية أصولها وتطوراتها, ترجمة: عبد الحليم محمود, أبوبكر زكريا, دار العروبة, القاهرة, مصر.
- كارس, جيمس بيرس, (1998م), الموت والوجود, دراسة لتصورات الفناء الإنساني في الثرات الديني والفلسفي العالمي, ترجمة: بدر الديب, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, مصر.
- كبلستون, فردريك, (2002م), تاريخ الفلسفة, اليونان والرومان , ترجمة : إمام عبدالفتاح إمام, المجلد الأول, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, مصر.
- كيفتش, فواد سواف تاتار, (2012م), الفلسفة اليونانية, ترجمة: محمد عثمان مكي العجيل, د ط، كنوز للنشر والتوزيع, القاهرة, مصر.

رابعاً: الدوريات:

- المعلة, جميل خليل نعمة, (2013م), "الفكر الفلسفي الأخلاقي عند المدارس اليونانية المتأخرة", مجموعة مؤلفين, الفلسفة الأخلاقية من سؤال المعنى إلى مأزق الإجراء, أشراف وتحرير, سمير بلكفيف, ط 1, دار الأمان, الرباط, المغرب.

خامساً: مصادر ومراجع الإنترنت:

- عبد العزيز, هناء سيد, (ب– ت), أثر الفكر الديني في مفهوم الأتراكسيا عند الرواقية والأبيقورية, www.pdffactory.com. 3/ 9/ 2021م.
- سعد, فيصل, (2015م) المسالة الأخلاقية في الثقافات القديمة, مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث, 3/ 9/ 2021م.